وهذا النهى مخصوص بغير المواضع التى يؤمر بالجهر فيها كالأذان وتكبير يوم العيد ، وبغير ما أذن فيه النبى صلى الله عليه وسلم إذْناً خاصاً كقوله للعباس حين إنهزم المسلمون يوم حنين « نَادِيا أصحابَ السَّمُرة » وكان العباس جهير الصوت .

(ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) أى : لا تجهروا له جهراً مثل جهر بعضكم لبعض . قال النسفى : [أى إذا كلمتموه وهو صامت فإياكم والعدول عما نهيتم عنه من رفع الصوت ، بل عليكم أن لا تبلغوا به الجهر الدائم بينكم وأن تتعمدوا فى مخاطبته القول اللين المقرب من الهمس الذى يضاد الجهرة أو لا تقولوا له : يا محمد ، يا أحمد ، وخاطبوه بالنبوة والسكينة والتعظيم][1] .

وقال الإمام النسفى أيضاً : [لم ينهوا عن الجهر مطلقاً حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالمخافته ، وإنما نهوا عن جهر مخصوص ، أعنى : الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منه فيما بينهم وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها][2] .

وقال ابن كثير : [نهى من الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبة ممن عداه ، بل يخاطبه بسكينة ووقار وتعظيم][3] .

ثم قال الإمام بن كثير : [يكره رفع الصوت عند قبره صلى الله عليه وسلم كما كان يكره فى حياته عليه الصلاة والسلام ، لأنه محترماً حياً وفى قبره صلى الله عليه وسلم دائماً][4] .

ثم قال تعالى معللاً للنهى عن رفع الصوت أو الجهر له بالقول كجهر البعض للبعض « أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون »

فى محل نصب على نزع الخافض وهو لام التعليل وهذا تعليل للمنهى عنه لا للنهى أى أن الجهر له بالقول يفضى بكم إن لم تكفوا عنه أن تحبط أعمالكم . محبط الأعمال بذلك مما يحذر منه فجعله مدخولاً للام التعليل مصروف عن ظاهر .

فالتقدير : خشية أن تحبط أعمالكم ، كذا يقدّر نحاة البصرة فى هذا وأمثاله .[5]

---

(١) تفسير النسفى جـ ٤ صـ ١٦٦ .
(٢) نفس المرجع ٤ / ١٦٧ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٤ صـ ٢٠٧ .
(٤) نفس المرجع جـ ٤ صـ ٢٠٧ .
(٥) إعراب القرآن وبيانه لمحى الدين الدرويش ٩ / ٢٥٨ .

والحبط : تمثيل لعدم الإنتفاع بالاعمال الصالحة بسبب ما يطرأ عليها من الكفر مأخوذ من خَبِطَت الإبل إذا أكلت فنفخ بطونها وتعتلّ وربما هلكت .
وفى الحديث « وإن مما يُنبت الربيعُ لَمَا يقتل حبطاً أو يُلِمّ »
قال الإمام ابن كثير : [أى إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك فيغضب الله تعالى لغضبه ، فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدرى] (١) .
وقال الإمامان الألوسى وأبوحيان : إن كانت الآية بمن يفعل ذلك استخفافاً فذلك كفر يحبط معه العمل حقيقة ، وإن كانت للمؤمن الذى يفعله غلبة وجرياً على عادته فإنما يحبط عمله البر فى توقير النبى صلى الله عليه وسلم وغض الصوت عنده أن لو فعل ذلك كأنه قيل : مخافة أن تحبط الأعمال التى هى معدة أن تعملوها فتؤجروا عليها ، ولا يخفى ما فى الشق الثانى من التكلف البارد ، ثم إن من الجهر ما لم يتناوله النهى بالاتفاق وهو ما كان منهم فى حرب ، أو مجادلة معاند ، أو إرهاب عدو ، أو ما أشبه ذلك مما لا يتخيل منه تأذٍ أو استهانة (٢) .
(يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبينوا أنْ تُصيبُوا قَوْماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) (٣) .
هذا نداء ثالث ابتدئ به غرض آخر وهو آداب جماعات المؤمنين بعضهم مع بعض وقد تضافرت الروايات عند المفسرين .
« عن أم سلمة وابن عباس والحارث بن خزارة الخزاعى إن هذه الآية نزلت عن سبب قضية حدثت ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة بن أبى مُعيط إلى بنى المصطلق من خزاعة ليأتى بصدقاتهم فلمّا بلغهم مجيئه ، أو لمّا استبطأوا مجيئه ، فإنهم خرجوا لتلقيه أو خرجوا ليبلغوا صدقاتهم بأنفسهم وعليهم السلاح وأن الوليد بلغه أنهم خرجوا إليه بتلك الحالة وهى حالة غير مألوفة فى تلقى المتصدقين ، وحدثته نفسه أنهم يريدون قتله ، أو لما رآهم مقبلين كذلك (على إختلاف الروايات) خاف أن يكونوا أرادوا قتله إذ كانت بينه وبينهم شحناء من زمن الجاهلية فولّى راجعاً إلى المدينة .
« هذا ما جاء فى روايات أربع متفقة فى صفة خروجهم إليه مع إختلافها فى بيان البـاعث لهم على ذلك الخـروج وفى أن الوليد أُعلم بخـروجهم إليـه أو رآهـم أو

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ صـ ٢٠٨ .
(٢) تفسير الألوسى ٧ / ١٥ وأبى حيان ٤ / ١٢٥ .
(٣) سورة الحجرات الآية رقم ٦ .

استشعرت نفسه خوفاً » وأن الوليد جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إن بنى المصطلق أرادوا قتلى وأنهم منعوا الزكاة فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهمّ أن يبعث إليهم خالدَبن الوليد لينظر فى أمرهم ، وفى رواية أنه بعث خالداً وأمره بأن لا يقزوهم حتى يستثبت أمرهم وأن خالداً لما بلغ ديار القوم بعث عيناً له ينظر حالهم فأخبره أنهم يقيمون الأذان والصلاة فأخبرهم بما بلغ رسولَ اللّه صلى الله عليه وسلم عنهم وقبض زكاتهم وقفل راجعاً .

وفى رواية أخرى أنهم ظنوا من رجوع الوليد أن يُظن بهم منع الصدقات فجاؤوا النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يخرج خالد إليهم متبرئين من منع الزكاة ونية الفتك بالوليد بن عقبة . وفى رواية أنهم لما وصلوا إلى المدينة وجدوا الجيش خارجاً إلى غزوهم ويقول صاحب التحرير والتنوير : فهذا تلخيص هذه الروايات وهى بأسانيد ليس منها شئ فى الصحيح [1] . واتفق مع هذا الرأى والدليل على ذلك أنه لا يجوز أن يقال أن الوليد وهو صاحبى جليل أن الآية نزلت فيه ، وإنما نزلت لتفيد العموم . قول صاحب اعراب القرآن الكريم وبيانه فى قوله تعالى : (إن جاءكم فاسق) والفائدة منه الشياع والشمول لأن النكرة إذا وقعت فى سياق الشرط عمّت كما تعم إذا وقعت فى سياق النفى ، وفى هذا التنكير ردٌ على من زعم أنها نزلت فى الوليد بن عقبة وهو من كبار الصحابة لأن أخلاق الفسوق عليه بعيد ذلك أن الفسوق هو الخروج من الشئ والإنسلاخ منه والوليد كما يذكرون ظن فأخطأ والمخطئ – كما يقول الرازى – لا يسمى فاسقاً فالعموم هو المراد كأنه قال : أى فاسق جاءكم بأىّ نبأ فمحصّوه وأعرضوه على محك التصويب والتخطئة قبل البّت فى الحكم ولا تستعجلوا الأمور [2] .

ولنشتغل الآن ببيان وجه المناسبة لموقع هذه الآية عقب التى قبلها فإن الانتقال منها إلى هذه يقتضى مناسبة بينهما ، فالقصتان منشابهتان إذ كان وفد بنى تميم النازلةُ فيهم الآية السابقة جاؤوا معتذرين عن ردهم ساعى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقبض صدقات بنى كعب بن العنبر من تميم كما تقدم وبنى المصطلق تبرأوا من أنهم يمنعون الزكاة إلا أن هذا يُناكِده بُعد ما بين الوقتين إلا أن يكون فى تعيين سنة وفد بنى تميم وَهَم .

وإعادة الخطاب (يأيها الذين آمنوا) وفصله بدون عاطف لتخصيص هذا الغرض

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥ / ٢٢٨ .

(٢) اعراب القرآن الكريم وبيانه لمحى الدين الدرويش ٩ / ٢٦٤ .

بالإهتمام كما علمنا فى قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) فالجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً للمناسبة المتقدم ذكرها ولا تعلق لهذه الآية بتشريع فى قضية بنى المصطلق مع الوليد بن عقبة لأنها انقضت وسُويت [1] .

قوله (إن جاءكم فاسق بنبأ) سماه فاسقاً تنفيراً وزجراً عن المبادرة والاستعجال إلى الأمر من غير تثبيت كما فعل هذا الصحابى الجليل لكنه مؤول ومجتهد فيما فعله .. فليس فاسقاً حقيقة [2] (بنبأ) أى : بخبر (فتبينوا) أى فتوثقوا فيه وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة ، ولا تعتمدوا قول الفاسق لأن من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذى هو نوع منه . قال الإمام النسقى : [وفى الآية دلالة على قول خبر الواحد العدل ، لأنا لو توقفنا فى خبره لسوينا بينه وبين الفاسق ولخلا التخصيص به عن الفائدة] [3] .

وقال الإمام بن كثير : [يأمر الله تعالى بالتثبت فى خبر الفاسق ليحتاط له . لئلا يحكم بقوله فيكون فى نفس الأمر كاذباً أو مخطئاً ، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه وقد نهى الله عز وجل عن اتباع سبيل المفسدين ، ومن ها هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال ، لاحتمال فسقه فى نفس الأمر ، وقبلها آخرون ، لأنا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال] [4] .

وقال الإمام الألوسى : [والظاهر أن المراد به هذا المسلم المخل بشئ من أحكام الشرع أو المروءة بناء على مقابلته بالعدل وقد اعتبر فى العدالة عدم الإخلال بالمروءة] .

والمشهور الاقتصار فى تعريفه على الإخلال بشئ من أحكام الشرع [6] .

ثم بين تعالى الحكمة فى الأمر بالثبت فى خبر الفاسق فقال : (أن تصيبوا) أى : لئلا تصيبوا (قوماً بجهالة) يعنى : جاهلين بحقيقة الأمر (فتصبحوا) أى :

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥ / ٢٢٩ .

(٢) « الفتوحات الإلهية » سليمان بن عمر العجيلى الشافعى الشهير بالجمل ٤ / ١٧٨ .

(٣) تفسير النسفى جـ ٤ صـ ١٦٨ .

(٤) تفسير بن كثير ٤ / ٢١١ .

(٥) تفسير الألوسى جـ صـ .

(٦) تفسير الألوسى جـ صـ .

فتصيروا (على ما فعلتم نادمين) قال الإمام النسفى : [الندم : ضرب من الغم ، وهو أن تغتم على ما وقع منك تتمنى أنه لم يقع ، وهو غم يصحب الإنسان صحبة لها دوام [1] .

(يأيها الذين آمنوا لا يسخَرْ قومٌ من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساءٌ من نساء عسى أن يكُنَّ خير منهن) [2] .

لما اقتضت الأخوة أن تحْسُن المعاملة بين الأخوين كان ما تقرر من إيجاب معاملة الإخوة بين المسلمين يقتضى حسن المعاملة بين آحادهم فجاءت هذه الآيات منبهه على أمور من حسن المعاملة قد تقع الغفلة عن مراعاتها لكثرة تفشّيها فى الجاهلية لهذه المناسبة . وهذا نداء رابع أريد بما بَعده أمرُ المسلمين بواجب بعض المجاملة بين أفرادهم .

روى الواحدى عن ابن عباس أن سبب نزولها : [أن ثابت بن قيس بن شمّاس كان فى سمعه وَقْر وكان إذا أتى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم يقول : أوسعوا له ليجلس إلى جنبه فيسمع ما يقول فجاء يوماً يتخطى رقاب الناس فقال : قد أصبتَ مجلساً فاجلس . فقال ثابت : مَنْ هذا ؟ فقال الرجل : أنا فلان . فقال ثابت : ابن فلانة . وذكر أمًّا له كان يُعيَّر بها فى الجاهلية ، فاستحيا الرجل . فأنزل الله هذه الآية] وهذا من اللمز [3] .

وروى عن عكرمة : [أنها نزلت لما عيّرت بعض أزواج النبى صلى الله عليه وسلم أمّ سلمة بالقِصَر] وهذا من السخرية .

وقيل : عير بعضهن صفية بأنها يهودية ، وهذا من اللمز فى عرفهم . وقد تعرضت الآيات الواقعة عقب هذا النداء لصنف مُهِمّ من معاملة المسلمين بعضهم لبعض مما فشا فى الناس من عهد الجاهلية التساهل فيها وهى من إساءة الأقوال ويقتضى النهى عنها الأمر بأضدادها . وتلك المنهيات هى من السخرية واللمز والنبز .

والمعنى : « يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم » أى : لا يستهزئ رجال من رجال بدليل ما يأتى ، والمراد بذلك النهى عن احتقارهم واستصغارهم ، وهذا حرام قال الإمام ابن كثير : [فإنه قد يكون المحتقَر أعظم قدراً عند الله تعالى وأحب إليه

---

(١) تفسير النسفى جـ ٤ صـ ١٦٦ .

(٢) سورة الحجرات الآية رقم ١١ .

(٣) أسباب النزول للواحدى صـ ١٢٥ .

من الساخر منه المحتقر له] [1] .
(عسى أن يكونوا خيراً منهم) هذه علة النهى .
قال الإمام النسفى : « والمعنى : وجوب أن يعتقد كل واحد أن المسخور منه ربما كان عند الله خير من الساخر ، إذ لا إطلاع للناس إلا على الظاهر . ولا علم لهم بالسرائر ، والذى يوزن عند الله خلوص الضمائر فينبغى ألا يجترئ أحد على الإستهزاء بمن تقتحمه عينه إذا رآه رثّ الحال أو ذا عاهة فى بدنه أو غير لبيق فى محادثته ، فلعله أخلص ضميراً أو أنقى قلباً ممن هو على ضد صفته ، فيظلم نفسه بتحقير من وقّره الله [2] .

وتنكير « قوم » فى الموضعين لإفادة الشياع لئلا يتوهم نهى قوم معينين سخروا من قوم معينين .
وإنما أسند « يسخر » إلى « قوم » دون أن يقول : لا يسخر بعضكم من بعض كما قال « ولا يغتب بعضكم بعضا » للنهى عما كان شائعاً بين العرب من سخرية القبائل بعضها من بعض فوجه النهى إلى الأقوام .
ويفهم منه النهى عن أن يسخر أحد من أحد بطريق لحن الخطاب وهذا النهى صريح فى التحريم .
وقال صاحب التحرير : خص النساء بالذكر مع أن القوم يشملهم بطريق التغليب العرفى فى الكلام كما يشمل لفظُ « المؤمنين » المؤمنات فى اصطلاح القرآن بقرينة مقام التشريع فإن أصله التساوى فى الأحكام إلا ما أقتضى الدليل تخصيص .
أحد الصنفين به دفعاً لتوهم تخصيص النهى بسخرية الرجال إذ كان الاستسخار متأصلاً فى النساء فلأجل دفع التوهم الناشئ من هذين السببين على نحو ما تقدم فى قول الله تعالى من آية القصاص (والأنثى بالأنثى) [3] .
بعد أن ذكر الله تعالى الأدب الأول وهو أن لا يسخر مؤمن من مؤمن ذكر الله عز وجل الأدب الثانى (ولا تلمزوا أنفسكم) أى : لا يطعن بعضكم على بعض . قال الإمام النسفى : [أى لا تطعنوا أهل دينكم ، واللمز : الطعن والضرب باللسان ... والمؤمنون كنفس واحدة فإذا عاب المؤمن مؤمناً فكأنما عاب نفسه ، وقيل معناه : لا

---

(١) تفسير بن كثير ٤ / ٢١٢ .
(٢) تفسير النسفى جـ ٤ صـ ١٧٠ .
(٣) التحرير والتنوير ٢٥ / ٢٤٧ .

تفعلوا ما تُلمَزون به لأن من فعل ما استحق به اللمز فقد لمز نفسه حقيقة [1] .
وهذه الآية الكريمة نزلت فى بنى سلمة « عن أبى جبيرة بن الضحاك وهو أخو ثابت بن الضحاك الأنصارى قال فينا نزلت هذه الآية قال قدم علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس منا رجل له إسمان أو ثلاثة فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا فلان فيقولون مه يارسول الله إنه يغضب من هذا الاسم فأنزل الله هذه الآية قال الإمام الترمذى هذا حديث حسن [2] « ولا تنابزوا بالألقاب »
ومعنى التنابز : تفاعل من النبز وهو التداعى باللقب والترب منه لقب السوء ، ويقال تنابزوا وتنابزوا إذا دعا بعضهم بعضا بلقب سوء [3]
(بئس الإسم الفسوق بعد الإيمان) أى : بئس الصفة والإسم الفسوق بعد ما دخلتم فى الإسلام وعقلتموه أى بئس أن تستبدلوا إسم الإ يمان بأن كان أسم أحدكم مؤمناً باسم الفسوق . بأن يصبح الواحد منكم اسمه فاسق يفعله ما يسمى به فاسقاً ، دل ذلك على أن هذه الأشياء الثلاثة التى ذكرتها الآية تجعل صاحبها فاسقاً وهى الاستهزاء والطعن والتنابز بالألقاب جداً أو هزلاً ثم قال تعالى ومن لم يتب عما نهى عنه (فأولئك هم الظالمون) دلّ ذلك على أن الثلاثة المذكورة فسوق عن أمر الله وظلم للخلق .
(يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم) [4] .
أعيد النداء خامس مرة لإختلاف الغرض والإهتمام به ، وذلك أن المنبهات المذكورة بعد هذا النداء من جنس المعاملات السيئة الخفية التى لا يتفطن لها من عومل بها فلا يدفعها فما يزيلها من نفس من عامله بها .
قال الإمام بن كثير [يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن كثير من الظن وهو التهمة والتخوّن للأهل والأقارب والناس فى غير محله ، لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً فليتجنب كثير منه احتياطاً] [5] .
وقال الإمام النسفى أيضاً : [والمأمور باجتنابه بعض الظن وذلك البعض موصوفاً بالكثرة] [6] .

---

(١) تفسير النسفى جـ ١٤ صـ ١٧ .
(٢) رواه الترمذى ٥ / ١١٠ وقال حديث حسن . (٣) إعراب القرآن ٩ / ٢٦٨ .
(٤) سورة الحجرات الآية رقم ١٢ .
(٥) تفسير بن كثير ٤ / ٢١٤ . (٦) تفسير النسفى جـ ٤ صـ ١٧٢ .

وقال الزجاج : [هو ظنك بأهل الخير سوءاً فأما أهل الفسق ، فلنا أن نظن فيهم مثل الذى ظهر منهم] وقد يكون المعنى : احترزوا من الكثير من الظن ليقع المحترز عن البعض الذى فيه إثم ، والإثم الذنب الذى يستحق صاحبه العقاب . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » وجملة (إن بعض الظن إثم) استئناف بيانى لأن قوله (اجتنبوا كثيراً من الظن) المأمور باجتنابه ، لأنها أنواع كثيرة فنية على عاقبتها وترك التفصيل لأن فى إبهامه بعثاً على مزيد من الإحتياط .

ومعنى كونه إثماً أنه : إمّا أن ينشأ على ذلك الظن عمل أو مجرد اعتقاد فإن كان قد ينشأ عليه عمل من قول أو فعل كالاغتياب والتجسس وغير ذلك فليقدّر الظّان أن ظنه كاذب ثم لينظر بعدُ فى عمله الذى بناه عليه فيجده قد عامل به من لا يستحق تلك المعاملة من اتهامه بالباطل فيأثم مما طوى عليه قلبه لأخيه المسلم .

وقد قال العلماء : إن الظن القبيح بمن هو ظاهره الخير لا يجوز وإن لم ينشأ عليه إلا مجرد اعتقاد دون عمل فليقدّر أن ظنه كان مخطئاً يجد نفسه قد اعتقد فى أحد ما ليس به ، فإن كان اعتقاداً فى صفات الله فقد افترى على الله وإن كان اعتقاداً فى أحوال الناس فقد خسر الانتفاع بمن هو ظنه ضار أو الاهتداء بمن ظنه ضالاً أو تحصيل العلم ممن ظنه جاهلاً ونحو ذلك .

ووراء ذلك فالظن الباطل إذا تكررت ملاحظته ومعاودة جولانه فى النفس قد يصير علماً راسخاً فى النفس فتترتب عليه الآثار بسهولة فتصادف من هو حقيق بضدها [1] .

(ولا تَجَسسُوا)

التجسس من آثار الظن لأن الظن يبعث عليه حين تدعو الظانَّ نفسُه إلى تحقيق ما ظنه سراً فيسلك طريق التجسس فحذرهم الله من سلوك هذا الطريق للتحقق ليسلكوا غيره إن كان فى تحقيق ما ظن فائده .

وقال صاحب إعراب القرآن الكريم : التجسس فى اللغه .

« تجسسوا » يقال تجسس الأمر إذا تطلبه وبحث عنه وقرئ ، ولا تحسسوا بالحاء ، والمعنيان متقاربان ، وقال الأخفش ليست تبعد إحداهما عن الأخرى لأن التجسس البحث عمّا يكتم عنك والتحسس بالحاء طلب الأخبار والبحث عنها ، وقيل إن التجسس بالجيم هو البحث ومنه قيل : رجل جاسوس إذا كان يبحث عن الأمور

---

(١) التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ٢٥ / ٢٥٣ .

وبالحاء ما أدركه الإنسان ببعض حواسّه ، وفى القاموس : « ولا تجسسوا » أى خذوا ما ظهر ودعوا ما ستر الله عزّ وجلّ أو لا تفحصوا عن بواطن الأمور أو لا تبحثوا عن « العوارت » وجاء فيه أيضاً : « والتجسّس الاستماع لحديث القوم وطلب خبرهم فى الخير »(١)

وفى هذه الآية الكريمة أفانين متنوعة من البلاغة ندرجها فيما يلى :

١- التنكير فى قوله (كثيراً من الظن) والسر فيه إفادة معنى البعضة للإيذان بأن فى الظنون ما يجب أن يجتنب من غير تبيين لذلك ولا تعيين لئلا يجترئ أحد على ظن إلا بعد تأمّل وبُعد نظر وتمحيص واستشعار للتقوى والحذر من أن يكون الظن طائش السهم ، بعيداً عن الإصابة وما أكثر الذين تسوّل لهم ظنونهم ما ليس واقعاً ولا يستند إلى شئ من اليقين .

٢- الاستعارة التمثيلية الرائعة فى قوله تعالى (أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه) فقد شبّه من يغتاب غيره بمن يأكل لحم أخيه ميتاً وفيها مبالغات

أولها : الاستفهام الذى معناه التقرير كأنه أمر مفروغ منه مبتوت فيه .

وثانيها : جعل ما هو الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة .

وثالثها : إسناد الفعل إلى كل أحد للإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يحبّ ذلك

ورابعها : أنه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان وهو أكره اللحوم وأبعثها على التقزّز حتى جعل الإنسان أخاً .

وخامسها : أنه لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعله ميتاً ومن ثم فصحت هذه الآية وأكبرها أصحاب البيان (٢) .

وفى صحيح مسلم . عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : ذكرك أخاك بما يكره قال : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول . فقال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته (٣) » .

(ولا يغتب بعضكم بعضاً) فيه نهى عن الغيبة وقد فسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « ذكرك أخاك بما يكره » وإنما قال الله تعالى : (ولا يغتب بعضكم بعضا) دون أن يقول : اجتنبوا الغيبة لقصد التوطئة للتمثيل الوارد فى

---

(١) إعراب القرآن الكريم ٩ / ٢٧٢ .

(٢) إعراب القرآن وبيانه ٩ / ٢٧٥ .

(٣) صحيح مسلم جـ ٤ صـ ٢٠٠ .

قوله (أيُحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً لأنه لما كان ذلك التمثيل مشتملاً على جانب فاعل الاغتياب ومفعوله مهّد له بما يدلّ على ذاتين لأن ذلك يزيد التمثيل وضوحاً (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً) يقول تعالى ذكره للمؤمنين أيحبّ أحدكم أيها القوم أن يأكُلَ لحم أخيه بعد مماته ميتاً ، فإن لم تحبوا ذلك وكرهتموه لأن الله حرّم ذلك عليكم ، فكذلك لا تحبوا أن تغتابوه في حياته ، فاكرهوا غيبته حياً ، كما كرهتم لحمه ميتاً ، فإن الله حرّم غيبته حياً ، كما حرّم أكل لحمه ميتا [1]

قال الإمام الالوسي : « وما أحسن ما جاء الترتيب في هذه الآية أعني قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ... الخ) كما قال أبو حيان وفصله بقوله : جاء الأمر :

أولاً باجتناب الطريق التي لا تؤدي إلى العلم وهو الظن ، ثم نهى ثانياً عن طلب تحقيق ذلك .

الظن ليصير علماً بقوله سبحانه وتعالى (ولا تجسسوا) ثم نهى ثالثاً عن ذكر ذلك إذا علم ، فهذه أمور ثلاثة مترتبة : ظن فعلم بالتجسس ، فاغتياب (واتقوا الله) أي : فيما أمركم به ونهاكم عنه فراقبوه في ذلك (إن الله تواب) أي البليغ في قبول التوبة على من تاب إليه (رحيم) لمن رجع إليه واعتمد عليه [2] .

وقال الإمام النسفي : « أي »واتقوا الله بترك ما أمرتم باجتنابه والندم على ما وجد منكم منه فإنكم إن اتقيتم تقبل الله توبتكم ، وأنعم عليكم بثواب المتقين التائبين .

وقال الإمام الألوسي : [وقال الإمام ابن حجر : إنه تعالى ختم كلاً من الآيتين بذكر التوبة رحمة بعباده وتعطفاً عليهم ، لكن لما بدئت الأولى بالنهي ختمت بالنفي في (ومن لم يتب) لتقاربهما ، ولما بدئت الثانية بالأمر في (اجتنبوا) ختمت به في (واتقوا الله) ...الخ ، وكان حكمة ذكر التهديد الشديد في الأولى فقط بقوله تعالى (ومن لم يتب) ... الخ ، أن ما فيها أفحش ، لأنه إيذاء في الحضرة بالسخرية أو اللمز أو النبز بخلافه في الآية الثانية فإنه أمر خفي ، إذ كل من الظن والتجسس والغيبة يقتضي الإخفاء وعدم العلم به غالباً [3] .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم .

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ١٣ / ١٣٧ .

(٢) روح المعاني للألوسي جـ ... (٣) روح المعاني للألوسي ، ابن حجر العسقلاني ٤ / ١٣١ .